

لذلك، في بداية السّنة، بينما نبدأ مسيرتنا نحو الأيام الجديدة والغريدة التي تنتظرنا، لنطلب من الربّ يسوع أن نشعر في كلّ لحظة، حولنا وفوقنا، دفء عناقه الأبويّ ونور وبركة نظرته، لكي نفهم بشكل أفضل دائماً ونُدرك باستمرار من نحن وإلى أيّ مصير رائع نسير (راجع المجمع الفاتيكانيّ الثّاني، دستور رعائي، فرح ورجاء، 41). وفي الوقت نفسه، لنمجّده بالصّلاة، وقداسة الحياة، فنصير بعضنا لبعض مرآةً لحنانه وصلاحه.

علّم القديس أغسطينس قال: إن "خالق الإنسان صار إنساناً في مريم: لكي يتمكّن، هو منظّم النّجوم، من أن يرضع من ثدي امرأة، ولكي يتمكّن، هو الخبز (راجع يوحنا 6، 35)، من أن يجوع (راجع متى 4، 2)، [...] وليحرّرنا نحن، وإن كنّا غير مستحقّين" (العظة 191، 1.1). وهكذا، ذكرنا بإحدى ميزات وجه الله الأساسيّة: ميزة مجانيّة محبته الكاملة، إذ قدّم نفسه لنا، كما أردت أن أوكد في رسالة اليوم العالميّ للسلام، أنّه "مجرّد من السّلاح ويجرّد من السّلاح"، وعارٍ وضعيف مثل طفل مولود جديداً في المهده. وذلك ليعلمنا أنّ العالم لا يخلّص بشحذ السيوف، ولا بالسيطرة، ولا بالقمع، ولا بإبادة الإخوة، بل بالسّعي الدّووب إلى الفهم، والمغفرة، والتّحرير، واستقبال الجميع دون حسابات ودون خوف.

هذا هو وجه الله الذي سمحت مريم بأن يتكوّن وينمو في أحشائها، فغيّر حياتها تغييراً كاملاً. إنّ الوجه الذي بشرت به بنور عينيّ أمّ تنتظر، فرحين وضعيفين، وهو الوجه الذي تأملت جماله يوماً بعد يوم، بينما كان يسوع ينمو، طفلاً، ثمّ صبيّاً، ثمّ شابّاً، في بيتها، والذي تبعته بعد ذلك، بقلب تلميذة متواضعة، وهو يسير في طرق رسالته، حتّى الصّليب فالقيامة من بين الأموات. ولكي تقوم بذلك، تخلّت هي أيضاً عن كلّ دفاع، وتنازلت عن التوقّعات والمطالب والضّمّانات، كما تعرف الأمهات أن تفعل، وكرّست حياتها بلا تحفظ للابن الذي قبلته بالنعمة، لكي تعطيه بدورها للعالم.

نرى في أمومة مريم الإلهيّة لقاء بين واقعين هائلين "أعزّين": واقع الله الذي يتخلّى عن كلّ امتيازات ألوهيّته ليولد بحسب الجسد (راجع فيلبي 2، 6-11)، وواقع الإنسان الذي يعانق مشيئة الله بثقة كاملة، ويقدم له، في حبّ كامل، أسْمى ما فيه من قدرة، أيّ حرّيته.

كان القديس البابا يوحنا بولس الثّاني، وهو يتأمّل في هذا السرّ، يدعو إلى أن ننظر إلى ما وجده الرّعاة في بيت لحم: "حنان الطّفل المجرّد من السّلاح، والفقر المدهش الذي وُجد فيه، وبساطة مريم وبوسف المتواضعة"، التي غيّرت حياتهم، وجعلتهم "رسل خلاص" (عظة في قداس عيد القديسة مريم والدة الله، واليوم العالميّ الرّابع والثلاثين للسلام، 1 كانون الثّاني/يناير 2001).

قال ذلك في ختام اليوبيل الكبير لسنة 2000، بكلام يدعونا نحن أيضاً إلى أن تتأمّل. قال: "كم من عطايا وكم من فرص استثنائيّة قدّم اليوبيل الكبير للمؤمنين! في خبرة المغفرة التي نلناها ومنحناها، وفي ذكرى الشّهداء، وفي الإصغاء إلى صراخ فقراء العالم [...] لمسنا نحن أيضاً حضور الله الخلاصيّ في التّاريخ. لمسنا لمس اليد حبه الذي يجدّد وجه الأرض" (المرجع نفسه). ثمّ ختم وقال: "وكما طلب المسيح من الرّعاة الذين أسرعوا إلى السّجود له، يطلب من المؤمنين، الذين قدّم لهم فرح لقائه، استعداداً شجاعاً لينطلقوا من جديد ليعلموا إنجيله القديم والجديد دائماً. أرسلهم ليحيوا تاريخ البشر وثقافتهم برسالاته الخلاصيّة" (المرجع نفسه).

أيّها الإخوة والأخوات الأعزّاء، في هذا العيد الجليل، وفي بداية السّنة الجديدة، ونحن نقرب من ختام يوبيل الرّجاء، لتتقدّم إلى المذود بإيمان، الذي هو مكان السّلام "المجرّد من السّلاح ويجرّد من السّلاح" بامتياز، ولأنّه حامل البركة، فنستذكر عجائب الله التي صنعها في تاريخ الخلاص وفي حياتنا، ثمّ ننطلق من جديد، مثل شهود المغارة المتواضعين، "وهم يمجّدون الله ويسبحونه" (لوقا 2، 20) على كلّ ما رأينا وسمعنا. ليكن هذا التزامنا وقصدنا من أجل الأشهر المقبلة، ودائماً من أجل مسيرتنا المسيحيّة.
